

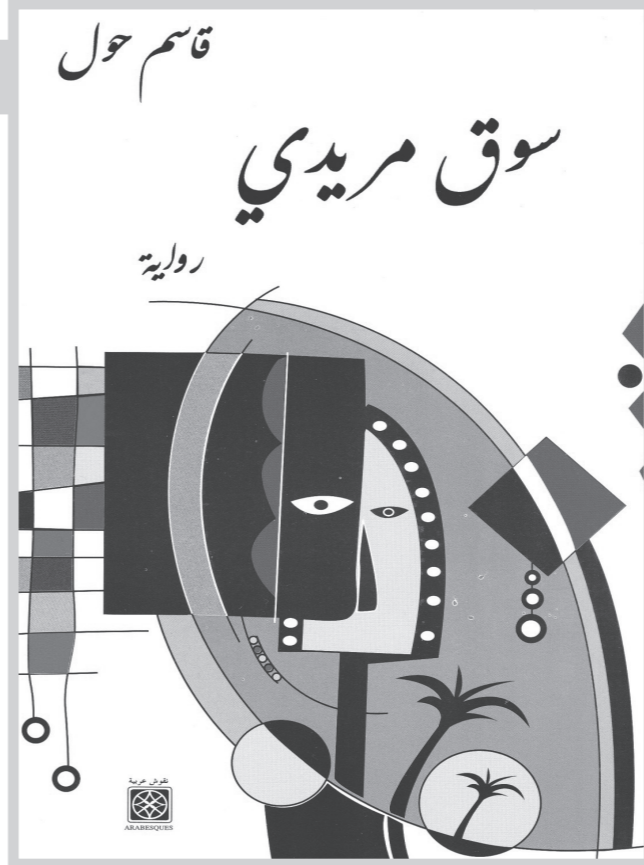
غزو الوطن وانهييار الشخصية اليسارية المثقفة في رواية (سوق مريدي) للكاتب قاسم حول

لندن / عدنان حسين أحمد

صدرت عن دار (نقوش عربية) في تونس رواية جديدة للكاتب والسينمائي العراقي قاسم حول تحمل عنوان (سوق مريدي)، والمريدي هو تصغير لكلمة (مُرْدِي) التي تعني الخشبية الطويلة التي يُدفع بها المشحوف في مياه الأهوار. كما تحمل إحدى الشخصيات الرئيسية في العمل الروائي اسم (مريدي) المصغر لأن أمه كانت تفقد ذريتها تباعا ف جاء هذا الاسم الغريب ليكون أشبه بتميمة خرافية يعقبه على قيد الحياة رغم (ساقية اللذين يتدليان مثل حبلين من طرفي حوضه). وعلى الرغم من أهمية هذه الشخصية التي يقوم عليها جزء كبير من بنية النص الداخلية، إلا أنها تظل شخصية مؤازرة مثلها مثل سالم الطيب، فرحان الكتبي، أم مريدي، سيدوري، جينا، أو سالم وغيرها من الشخصيات التي تظهر وتختفي على مدار هذا النص الروائي المتميز. أما الشخصية المحورية التي تشكل العمود الفقري لهذه الرواية فهي شخصية ميثم السرحان التي يمكن أن توصفها بالمرتبكة والدائرية في الأقل، هذا إذا لم تكن عويصة ومعقدة لما تنطوي عليه تناقضات واضحة وإشكاليات جلية كما أنها ترصد جانباً من الشخصية العراقية اليسارية المثقفة التي سقطت وانهارت، مع الأسف، لأنها تحولت إلى شخصية غازية، ومدمرة، تماهت مع المحتل وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه على الرغم من صحو ضميرها المتأخرة التي جاءت بعد (خراب البصرة) كما يُقال.

لا بد من الإشارة في هذا المقام إلى أن الروائي قاسم حول لا يعتمد انهيار هذه الشخصية العراقية المثقفة على المثقفين العراقيين كلهم، وإنما يقصد شريحة محددة منهم على شكلة ميثم السرحان الذي تماهى مع المحتل الأميركي، ودخل العراق غازياً، لكنه شعر بوخز الضمير الذي كان يؤنبه في لقاءاته المتعددة مع غالبية الأصدقاء والمعارف الذين كان يصادفهم في سياق النص الروائي وعلى رأسهم حبيبته (سيدوري)، هذا إذا غضضنا الطرف عن الإشارات والتلميحات المقصودة وغير المقصودة التي ترد على ألسنة بقية الشخصيات المساندة في النص الروائي.

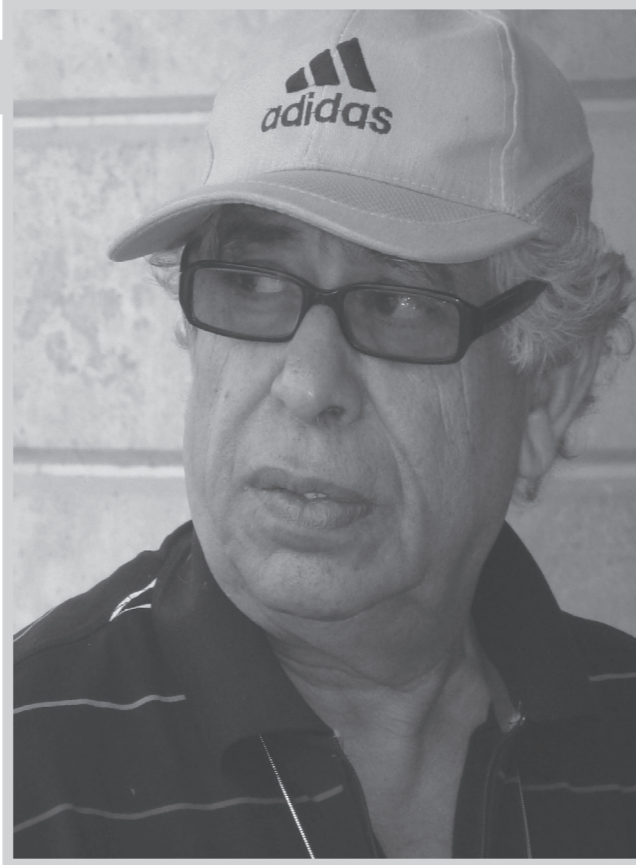
تتوفر شخصية ميثم السرحان على عدد من المعطيات المهمة التي قدمها لنا كاتب النص ومبدعه لأنها تشكل خلفية محددة تقضي بصاحبها المازوم نفسياً إلى هزيمة أخلاقية ووجدية لا نظير لها، بحيث يلتجئ في نهاية المطاف، وهو الشخص العدمي الذي لا يضع ثقته بقوى غيبية وخرافية، إلى تنفيذ فكرة (الزيارة الدينية) والتوسل بالإمام عليه يقدر له خطاه الفادح حينما جاء مع قوات الاحتلال غازياً، ويخفف من ذنوبه التي ارتكبها طوال حياته انفتحت على الأفكار العلمانية المتحررة. يتحدر ميثم السرحان من مدينة البصرة. درس فن التمثيل في معهد الفنون الجميلة ببغداد. وشارك في تمثيل العديد من المسرحيات وعلى رأسها مسرحية (كلكلامش)، و (أغنية التمس) التي قدمها في بغداد وعدد من المحافظات العراقية. غادر ميثم العراق بسبب هيمنة الحزب الواحد وقمع النظام الدكتاتوري لبقية الأحزاب السياسية ومن بينها الحزب الشيوعي العراقي الذي أصبح معارضا للنظام العراقي بعد انهيار (الجيبهة الوطنية) في أواخر عام 1978. لم يكن قمع النظام السابق هو السبب الوحيد الذي دفع ميثم للهجرة إلى هولندا والاستقرار فيها، بل كانت هناك مجموعة من الأسباب المزيقة، كما يسميها الروائي، هي التي أغرت عدداً كبيراً من المثقفين العراقيين على السفر إلى المنافي الأوروبية البعيدة، كما فعل ميثم السرحان الذي استقر في مدينة روتردام الهولندية وبدأ حياته الجديدة من نقطة الصفر، وعاش فيها خمس عشرة سنة إلى أن جاءه مندوب من المعارضة العراقية يطلب حضوره في مؤتمر بالعاصمة الهولندية حيث أعجب الخبير الأميركي بذكائه، وثقافته، ومعرفته الجيدة باللغة الإنكليزية، فلاغربة أن يقع الاختيار عليه لكي يكون مترجماً للقرات الأميركية الغازية بعد أن أدخلوه في دورة سريعة في أميركا حيث نقل مع عدد آخر من المثقفين العراقيين (إلى الكويت، ليجد نفسه في البداية التي توّدها (جينا) وتصل به إلى أبواب بغداد ليلا وهي تتلقى وإبلا غير معهود من القاتل والصوريسخ الذكية التي قوّضت البلاد



○ صورة الرواية

والعابد في أن معاً. هذه هي مجمل المعطيات الأساسية لميثم السرحان الذي وصل العراق غازياً لم يصح ضمير بعد. وحينما بدأ رحلته في مراجعة الذات، أو تأنيبها على الأصح، بدأ شارد الذهن على الدوام، مازوماً، ومهزوماً أمام ذاته وأمام الذوات الأخرى المحيطة به.

تفعيل البنية السردية يستعمل الروائي قاسم حول بين أو أن وآخر ضمير المخاطب، خصوصاً حينما يتحدث عن ميثم السرحان، وكما هو معروف فإن هذا الضمير يشعر القارئ وكأنه جزء من النص وشخصية من شخصياته الضمنية التي لا حول لها ولا قوة: (من أنت يا "ميثم السرحان"، وما الذي أتى بك إلى هذا السوق الذي تبدو غريباً فيه، وأنت نلت من أهل المدينة الفقيرة، ولا من سوقها الذي يشبه كل العراق تحت وطأة الاحتلال). لا شك في أن القارئ الصحفي سيتساءل: لماذا يتخذ ميثم من مهني سوق مريدي ملاذاً له؟ ولماذا لا يفصح عن حكايته السريّة؟ هل هو هارب من بغداد إلى ضواحيها؟ ومن الجيش الأميركي إلى هذا السوق المزدهم الثاني؟ لماذا يتحدث بواسطة هاتفه النقال بيضعة كلمات إنكليزية مع امرأة مجهولة ثم يعلق الهاتف على وجه السرعة؟ لا ينتظر الروائي طويلاً، إذ سرعان ما يزجنا في قلب الحدث، ويحيطنا علماً بتفاصيل الشخصية الرئيسية التي دهمت سوق مريدي على حين فجأة، وكان بهينة رجل وسيم يادر بسرعة إلى مساعدة (مريدي) الذي وجد صعوبة في تمرير كرسية المتحرك بين الطاولات المكتظة. ثم تحدث معه عن الانفجار الذي حدث يوم أمس في (سوق مريدي) وسأله عن الشخص الجريح الذي استفسر منه الطبيب: (شئو البوجك)؟ فأجاب (بوجعني السرحان) وشارك في الحياة في الحال. ثم يمضي الكاتب في الكشف عن أبعاد هذه الشخصية اليسارية المثقفة التي كانت مهووسة بقراءة المسرحيات، وخب التمثيل، واعتلاء خشبة المسرح. فما الذي دفعه لاعتلاء دبابه أميركية وحرصه على خوض هذه اللعبة القذرة التي تبدو أكبر من حجمه بكثير؟ لا يريد الروائي أن يكشف عن شخصية ميثم السرحان دفعة واحدة لأن فك التلازم والأسرار التي يتوفر عليها البطل هي جزء من اللعبة الروائية المثقفة، لكننا نعرف، من دون شك، أن عبقريته (جينا) تحاول استدراجه لكي تزجّه في سجن لا يخرج منه إلا فاقد الذاكرة! وضمن سياق عملية الكشف التدريجي يتعرف ميثم على شخصية فرحان الكتبي الذي شعر مثل بقية أصدقائه بأن ميثم السرحان غريب هذا السوق وهو ليس من أبناء هذه الضاحية الفقيرة



○ قاسم حول

على الرغم من علاقته التي ستتطور لاحقاً بمريدي ومرافقته إياه ليل نهار. لقد شعر فرحان الكتبي بأن ميثم السرحان هارب من شيء ما، ولكن الذي لفت انتباهه أن هذا الغريب المهزوم من شيء ما قد اقتنى (ملحمة كلكلامش)، هذا الكتاب الذي يشير إلى عقيرة الإنسان العراقي القديم الذي كان، ولا يزال، منغمساً في إشكالية الوجود والعدم، والبحث عن عشبة الخلود وما إلى ذلك من مبهيمات فخرية ملحة. وفي أثناء الحديث عن التبدلات الجذرية التي حدثت في المجتمع العراقي أشار الكتبي إلى أن العراق كان مولداً للفكر، ومركزاً للثقافة التي تراجعت في عهد الدكتاتور، فهاجر عدد كبير من المثقفين العراقيين، لكن بعضهم عاد إلى الوطن مع المحتل وصاروا جزءاً من اللعبة التي هدمت الوطن. هؤلاء المثقفون لا يتوفرون على معدن أصيل، لأن أرواحهم ملوثة، وثقافتهم هشة، ورويتهم معوجة، (فالذي يعيش في الوطن لا يمكن أن يفزه أو يقتضيه). لقد رسم الروائي شخصية فرحان الكتبي وكأنه حارس أمين على الثقافة فلاغربة أن يستنتج بأن الثقافة (قد اختفت، ولكنها لم تنته)، تماماً مثل كتب القصص والروايات والمسرحيات التي توارت في ظلمات السرداب وأصبحت طعاماً للفران والعت والرطوبة.

مقاصصة البطل الأتمتعمد الروائي في كل مناسبة أن يزع ميثم السرحان في قصص الاتهام، يقاصصه ويدينه على ما فعل بطريقة غير مباشرة، ليس مع الكتبي حسب، وإنما مع بقية الشخصيات مثل مريدي وأمه وحبيبته التسابفة (سيدوري) التي تعريه تعرية كاملة لأنها تعرف طويته الداخلية وطريقة تفكيره. وبغية التعرف على طبيعة هذه التعرية أو المقاصصة القاسية لا بد لنا أن نستعيد تفاصيل زيارته الأولى لها بعد غياب طويل، حيث فوجئ بشعورها الفصير المجدد الذي كان قبل خمس عشرة سنة طويلاً مرسلًا، لكنه تساقط بفعل الورم السرطاني الذي سببته المواد المشعة لقتال الجنود الأميركيين. تستعيد (سيدوري) من خلال هذا اللقاء حياة ميثم الذي كانت ترى فيه شخصاً موهوباً ومشروعاً ممثلاً مدش، لكنه (كان فاشلاً في الحياة)، فتمّة شيء مطوب في تفكيره، بيوم إصلاحه، لأنه يريد أن يبحث عن الحقيقة من جديد، وأن يعود إلى التمثيل، أو إلى المكان الصحيح الذي انطلق منه حتى وإن كان فقيراً. لقد سمعت (سيدوري) بأنه دخل الوطن غازياً، وليس عادداً، وهذه هي التيمة الرئيسية التي يتمحور عليها النص الروائي، هذا إضافة إلى رأيها اليقيني الثابت الذي

كوّنته عنه سابقاً، فلاغربة أن تردد جملتها الأثيرة التي ستصبح مثل مهيمنة فكرية تتسرد على مدار النص مفادها: (كنت تحاول أن تحب الوطن، ولكنك تحب نفسك أكثر. والذي يحب نفسه كثيراً يحب وطنه قليلاً أو حتى لا يحبه). ثم تمضي في تعداد خصاله ونواقص شخصيته المضطربة، فهو متردد، ولا يتخذ موقفاً حاسماً، ومن الناس الذين يهربون ولا يواجهون المشاكل والأحداث والحقائق، فكيف يستطيع أن يواجه الحقيقة في سرداب ملق؟ وبطبيعة الحال فهو ليس الشخصية المثقفة الوحيدة التي ضعفت أمام الهبات الرخيصة، وليست هي المثقفة الوحيدة التي صدمت أمام هول الكارثة، فهناك الكثير على الطرفين، لكن الذي أذهلنا أن هناك مؤسسات وقوى سياسية وشخصيات كانت تحسب لها حساباً، لكنهم مثلهم وقعوا في الأخطاء القاتلة التي لا تغفر، ومع ذلك فقد وضعوا أنفسهم بديلاً للدكتاتور الذي (كان مخلوقاً سينا وفانسلًا ومدمراً للحياة الإنسانية). صحيح أن (سيدوري) خسرت أشياء كثيرة، لكنها كسبت راحة الضمير. لم يعد يطبق هذه المحاكمة لذلك أراد أن يكتب لها رقم هاتفه المحمول كي تتصل به لاحقاً، وحينما دون الرقم لفت نظره عنوان الكتاب الذي تقرأه (عندما كنت وزيراً) وهو كتاب مذكرات لوزير في حكومة الاحتلال، وليس كتاباً عن المسرح أو التشكيل أو علم الجمال، ولكن في هذا الكتاب يرد اسم (أوشالم)، الشخص الذي قطع أشجار النخيل المزروعة في (متحف النخيل) بمنطقة الجادرية. وحينما شعر ميثم بالارتباك أدركت أن ثمة علاقة بين حادثة قطع النخيل واسم (أوشالم). سألته عن تلك العلاقة، لكنه كعادته لا يستطيع مواجهة الأحداث والحقائق فولى هارباً حتى من دون أن يرتشف الشاي الذي أعدته له.

العين السينمائية لاشك في أن قارئ هذه الرواية سيشعر حتماً بسطوة العين السينمائية وهي تصور غالبية أحداث هذا النص الروائي، بدءاً من التفجير الذي يحصل في سوق مريدي ويخلط اللحم البشري بلحوم الخراف المغلفة في دكان الفصا، مروراً برحاب الساقف التي أزاحت الحجاب الخفيف وكشفت عن وجهها الملائكي الجميل الذي سوف يطارده مريدي بمخيلته المتوقفة، وانتهاء بالزيارة الدينية التي يقوم بها الملايين من المواطنين إلى ضريح الإمام. لم يأت ميثم السرحان بقية مشاهدة الطقوس، والمواكب الحسينية، والتشابه حسب، وإنما أراد أن يرى المسرح الذي مثل على خشبته (أغنية التمس)، هذا الطائر الذي يعنى أغنيته الوحيدة قبل أن يموت. لقد عثر ميثم على المسرح، ولكنه وجده وقد تحول إلى مفسل للموتى. وجد غرفة الماكياج أيضاً، لكن الممثل كان ميتاً، الصلاة هي الصلاة نفسها، لكن المشاهدين سيكون فقط ولا يضحكون! يعود صوت الراوي الذي يتكلم بضمير المخاطب ليدين ميثم السرحان، لأنه هو الذي ساهم بتحطيم خشبة المسرح، وهو الذي زرع العارض الغريب في أحشاء (سيدوري)، وهو الذي صنع الدكتاتور، وعاد الآن لكي يلف جبل المشنقة على عنقه، وهو الذي وضع دكة غسل الموتى في غرفة الماكياج، وسجى الممثل في التابوت. اختتم قاسم حول روايته بمشهد سينمائي طويل على شاطئ أبي نواس جمع فيه حدثين مفضلين في أن معا. الأول لقاء ميثم السرحان مع سيدوري إثر مكالمته الهاتفية له وسؤاله إن كان يريد مشاهدة الصبية التي تطعم طيور النوارس خبزاً، والثاني لقاء مريدي الذي لم يخطط له، وإنما جاء محض مصادفة لاغير مع الصبية الجميلة التي ترتدي عباءة سوداء وتضع في اصبعها خاتماً فضياً ذا حجر تركوازي ذكره كثيراً برحاب الساقف، صاحبة الوجه الملائكي الذي ظل يتوق لرويته مثل حلم مستحيل وهو المقعد الذي لا يستطيع أن يغادر كرسية الأبعوة الآخرين. ومما يضاعف دلالة اللقائين هي الخاتمة الرمزية التي أنهى بها قاسم حول نصه الروائي المعبر حينما يضع ميثم السرحان يديه على أذنبة لكي لا يسمع أصوات الرتل العسكري الطويل من الدبابات الأميركية التي كانت تمر على شارع أبي نواس وتطفي على صرخات النوارس التي كانت تطعمها الصبية الحسنة التي تحمل ملامح شبه كبير بينها وبين رحاب الساقف التي توارت مثل طيف ساحر.

إصدارات

صدور كتاب "فضاءات التخيل مقاربات في التشكيل والرؤى والدلالة في إبداع سناء الشعلان"

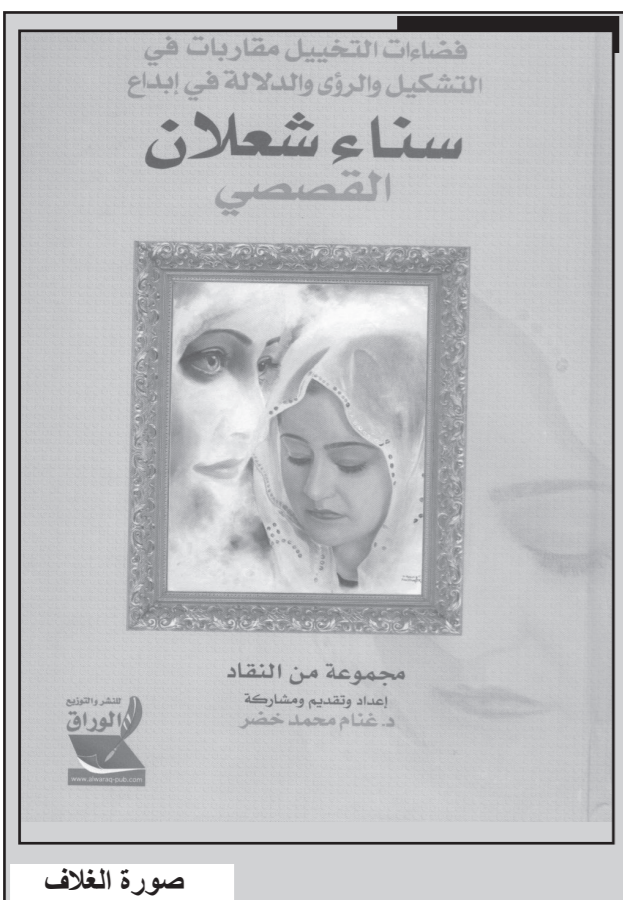
القصصي للدكتور غنام محمد خضر

الحب والصراع والبادية في مجموعة (قافلة العطش) القصصية "د. محمد عبدالرحمن بونس، و"فضاء الحب والصراع والبادية في مجموعة (قافلة العطش) القصصية"

د. محمد عبدالرحمن بونس. في حين أن الفصل الثالث معقود تحت عنوان "فاعلية القيم الإنسانية والثقافية في قصص سناء الشعلان" ويحتوي على الأبحاث التالية: "النوازات الإنسانية في أقصى توتراتها سناء الشعلان في "سداسية الحرمان" د. حسين جمعة، و"النماتة الإيحائية في قصص سناء شعلان" د. عبد الملك أشهبون، و"مقامات الاحتراق" لسناء شعلان.. والبحث عن تألف مع محيط قاس: هيا صالح، ومجموعة "ناسك الصومعة" لسناء شعلان: كلوبس القلق الحاضر": رحيم عبد الله فايز، ومجموعة "مذكرات رضيعة" لسناء الشعلان: ترجل عن صهوة الحياة: د. خالد عبد الكريم، ومقالات الذات وقهر العنصر قراءة في مجموعة (قافلة العطش) لسناء شعلان: أحمد طوسون، والجدار الزجاجي لسناء الشعلان سيرة مفتوحة لإيدولوجيا مغلقة: سليم النجار، والقيم الثقافية في مجموعة "قافلة العطش" للدكتورة سناء الشعلان: د. شوكت علي درويش، و"مجموعتها القصصية (الهرروب إلى آخر الدنيا) سناء شعلان تكشف عن توجهات الإنسان وتشظيات الواقع المهزوز: عمر أبو الهيجاء، و سناء الشعلان قلم يطر حكايا الحرمان سوار يطوق قصص تعج بالحياة: بهلة الجزاوي ويذكر أن الدكتور غنام محمد خضر أستاذ جامعي في جامعة تكريت وهو حاصل على درجة الدكتوراة في النقد المسرحي، وهو عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، وقد شارك في مؤتمرات ومهرجانات علمية داخل العراق وخارجه، وله الكثير من الكتب المولفة والمنشورة، ومنها: مسرح محيي الدين زكنة - مسرحية الفصل الواحد نموذجاً، مسرح سلطان القاسمي - دراسة نقدية.

د. غنام محمد خضر ود. سناء الشعلان يقع في ثلاثة فصول معقود تحتها الكثير من المحاور البحثية بأفلام نخبية من النقد العربي، فالفصل الأول حمل عنوان "شعرية التشكيل السردية في قصص سناء الشعلان"، وفي قصص سناء الشعلان، وكتب فيه د.سالم محمد ذنون، "جمالية العنوان في قصص سناء الشعلان مجموعة (قافلة العطش) أنموذجاً، وكتب د.صالح حمدان " التحليل الوطاني والإجراءات الأسلوبية وأثرها في النظام النصي في (قافلة العطش) للدكتور سناء الشعلان -روية نقدية، وكتب د.غنام محمد خضر "كسر أفق التوقع في قصص سناء شعلان مجموعة الهروب إلى آخر الدنيا أنموذجاً، وكتب خالد الباتلي "العالم القصصي عند الأدبية سناء الشعلان، وكتب محمد إكويدي "شخصيات النص السردية في (أرض الحكايا) للقاص سناء شعلان"، وكتب عمر تيسير شاهين" الخروج من سجن الحداثة قراءة للمجموعة القصصية "قافلة العطش"، وكتب عباس سليمان، "قافلة العطش لسناء شعلان إستراتيجية التناغم بين العتبات والنص، وكتب سمير الشريف" التنوع والثراء في قصص الجدار الزجاجي"، وكتب شاكر مجيد سيفو" القصص الغربي في أرض الحكايا"، وكتب د.إبراهيم خليل "أرض الحكايا لسناء الشعلان"، وكتب عباس سليمان، "قافلة العطش.. بطولة مغلقة وفتظايا علمية ومتعة فنية في جسد لغوي يسبح في الزمان والمكان"، أما الفصل الثاني فجاء بعنوان، "خطاب العشق والأوثنة في قصص سناء الشعلان"، واحتوى على الأبحاث التالية، "جدلية الحب والحرمان في المختلات السردية قراءة في مجموعة (أرض الحكايا) لسناء شعلان" د. فيصل غازي محمد النعمي، و"الأسطورة في إبداع الأنثى عوالم الحب والحرية دراسة في قصة عينا خضر لسناء شعلان" لونساسة كحيلي، و" ملحمة الحب والعطش لسناء شعلان" د. رشيد برهون، و"سرديات الحب وشفافية العوالم في مجموعة (الجدار الزجاجي" لسناء شعلان دمحم مصطفى علي حساتين، و"فضاء

عن مؤسسة الورق للنشر والتوزيع في الأردن صدرت الطبعة الأولى للعام 2012 لكتاب "فضاءات التخيل مقاربات في التشكيل والرؤى والدلالة في إبداع سناء الشعلان القصصي" الذي أعده وقدمه وشارك فيه د.غنام محمد خضر من جامعة تكريت في العراق حيث يقول في معرض حديثه عن الكتاب: "كلما تعمقت علاقتي مع سناء الشعلان زاد إعجابي بما كتبت، لأنني لا أشعر بأي تناقض بين ما كتبت وما تعمل، وهذا ما يهمني من الأدب، إذ نريده أن يكون فاعلاً في المجتمع حاملاً لهوموم مطبقاً للأفكار التي يدعو إليها من خلال ما يكتب، والشعلان من الأدبيات القلائل اللواتي يكتبن في أكثر من جنس أدبي، فالنوع لتجربة أدبية متعددة الكتابات أمر لا يخلو من المغامرة والمتعة، لأن هذه التعددية بلا شك تسهم في افتتاح كل جنس على ما جوله من أجناس أدبية أخرى، الأمر الذي يجعل النص عميقاً ومؤثراً، وإن كل جنس أدبي عند الأدب الذي تتعدد كتاباته الأدبية يكون محملاً بطاقات عالية من المعاني والأفكار، وأديبتنا من الأدبيات اللواتي كتبتن القصة والرواية والمسرحية وأدب الأطفال، وهذا التنوع جعل منها أدبية متمكنة فيما تكتب، ولعل التصدي لنوع أو جنس واحد من هذه التجربة يثير أسئلة كثيرة، فاختيارنا للقصة مثلاً لهذه الدراسة يثير تساؤلات عند المتلقي المهم والمطلع على كتابات الشعلان، فلماذا القصة؟ وهل القصة عندها أفضل من الأجناس الأخرى؟ وهل وهل وهل... الخ. فنقول إن اختيار القصة موضوعاً للنقد في هذا الكتاب يأتي من عدد المجاميع القصصية التي أصدرتها أولاً، ولغنى هذه التجربة ثانياً، فضلاً عن أن هذا الكتاب هو الأول الذي يتكلم عن تجربة الأدبية سناء الشعلان القصصية، إذا استثنينا طبعاً الأطروحات الجامعية التي أعدت عنها لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، وبما أنه الأول فكان لزاماً علينا أن نقف وقفة متأنية أمام تلك المجاميع القصصية، ولا نمر عليها مرور الكرام"، والكتاب الذي يحتوي في أخرى على ملاحق تعريفية بـ



صورة الغلاف